



لا نصر محسوماً في سوريا. لا طائرات بوتين تستطيع إنجاز هذه المهمة، ولا تراجعات أميركا يمكن أن تتحققها، ولا حتى كل خزان إيران البشري. كل ما يمكن تحقيقه لا يتعذر تحسين موقع طرف أو تحالف في المعادلة، ثم إن الانتصارات في مثل هذا النمط من الصراعات لا يمكن لها التمظهر إلا بعد ثبوت المتغيرات في شكل نهائي، وهذه تأخذ زمناً طويلاً قد يصل إلى عقد وأكثر.

ثمة من يستعجل إعلان نصر طرف في الحرب السورية، هو في شكل واضح نظام الأسد تحديداً، بناء على سيطرته على بعض الواقع، ولا شك في أن هذا معطى مضلل كشفته خيرة تجارب السنوات الماضية، ذلك أن النظام تراجع إلى حدود السيطرة على أقل من 15 في المئة من مساحة سوريا، وقد يستعيد السيطرة على غالبية سوريا بفضل تضافر ظروف موضوعية لمصلحته في هذه المرحلة من دون أن يعني ذلك انتصاره، فطالما بقيت هناك ثورة سيبقى هو تحت الخطر، وشروط استمراره تختلف عن شروط استمرار المعارضة ضده، فالثورة لديها مرونة أكبر ومن الممكن أن تتحول إلى أشكال أقل كلفة ولا تحتاج إلى انتشار واسع، في حين أن النظام يحتاج شروطاً وبيئة مختلفة، ميزتها الأساسية الكلفة العالية.

يؤثر ذلك بالضرورة على رهانات الطرفين، والرهانات هي المحركات الأكثر قوة في ديمومة الصراع، وإن تتطلب رهانات الأسد إيجاد بيئه ملائمة للقضاء على معارضيه، تتوافق مكوناتها الخارجية والداخلية على تحقيق هذا الهدف، وتتوفر له الموارد اللازمة، وهذا مستحيل في بيئه متطلبه، في مقابل أن رهانات معارضيه أقل اتساعاً وأخفض تكلفة، تبدأ من الرهان على اغتيال رأس النظام، وصولاً إلى تغيير في الموقف الدولي، وهي رهانات تبقى قابلة للتحقق.

استعادة السيطرة على حلب، التي يضعها المبشرون بانتصار النظام أيقونة لمؤشراتهم، قد تكون أنهت وجود كيان منافس

لكنها لم تنهِ الثورة. كل مرحلة ستكون ولادة لنمط مختلف من الصراع لن تكشف ملامحه لأنها سيكون استجابة للمتغيرات وتكييفاً معها.

النصر مستحيل لأن الأمور في سوريا لا يمكن معالجتها من فوق إلى تحت، فلا يكفي أن يتحسن الأسد في دمشق ولا أن تقبل بعض الدول ببقاءه لحل الأزمة أو تسويق ذلك كعلامة للنصر. القضية مرتبطة بملفات أعقد، تشمل اللاجئين، دمج عشرات إن لم يكن مئات آلاف المقاتلين في القوات المسلحة، إعادة الإعمار، مصير المعتقلين والمفقودين. كل واحدة من هذه القضايا هي عنصر تفجير ما لم يتم حلها بتوافق وطني ونتيجة رضا كل الأطراف، أو على الأقل توافقها على نوعية التنازلات ومستوياتها ومحتوها.

النصر مستحيل، لأن البعد العسكري بعد واحد في أزمة معقدة، والحل ليس مع الفصائل المسلحة التي لم تكن سوى تعبيرات إجتماعية عن موقف مقاوم للنظام. المشكلة مع المجتمع نفسه الذي اتخاذ قرار إطلاق شارة الثورة ثم تحمل كلفة احتضانها والسير بها ودفع ثمنها، وهو اليوم يتضرر حصاد الغلة وليس القبول بحلول ترجعه إلى واقع أسوأ من الذي ثار عليه.

صحيح أن السوريين تعلموا من ثورتهم درساً في السياسة فحواء أنه لم يعد ممكناً سقوط الأنظمة بالقوة ولا حتى بالثورات،وها هي مصر وتونس تعيدان إنتاج أنظمتها القديمة، فلكل نظام شبكة علاقات كما أن له منظومة يرتبط بها، لكن السوريين يعرفون أيضاً أنهم أصبحوا طرفاً تفاوضياً، وأنهم استعادوا تعريف الدولة وفق ما نصت عليه كلاسيكيات العلوم السياسية، الشعب، أرض، وسلطة، وبالتالي فإنه إن لم يكن ممكناً إسقاط رأس النظام اليوم، فإن الشعب صار جزءاً من المعادلة التي على أساسها ستعاد هيكلية السلطة وشكل الدولة.

ولا يصلح هنا الرهان على تعب طرف واحد. الجميع، بمن فيهم اللاعبون الكبار، وصل إلى أعلى مستويات الإنهاك. لقد خاضوا حرباً قاسية واستغلوا بأقصى طاقتهم للوصول إلى هنا، وكلهم يتمنون أن تكون المرحلة المقبلة مرحلة استثمار لما يعتقدون أنهم أنجزوه، وليس مواصلة للحرب بطرقها القديمة، وروسيا نفسها التي تعتبر المشغل الأساسي للحرب خفت حركة طائراتها لاعتقادها أنه لا يمكن الاستمرار بنفس النمط السابق، وأن المرحلة التي ستلي القضاء على التنظيمات المتطرفة ستكون لها حساباتها واستحقاقاتها.

النصر يصبح ممكناً في الصراع السوري، فقط إذا تم توزيعه على الجميع، بحيث تشعر جميع الفئات والطبقات والطوائف أنها حققت، من زاوية نظرها، ما يلبي مصالحها ويهدئ مخاوفها، إن لم يكن كلها فالجزء الأساس منها. فكل السوريين صار عندهم بنادق وقناصون، والصومال وأفغانستان هما تجربتان حيثان لأطراف استعجلت يوماً إدعاء نصرها.